Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

الأطفال وقصصهم

يقول حطان بن المعلى :

أنزلنـــى الدهو على حكمه ... من شـــامخ عال إلى خـــفض
وغـــالنى الدهر بوفر الغنى ... فليس لى مال ســـوى عـــرضى
أبكانى الدهر ، ويارب ـــا ... أضـحكنى الدهـــر بـا يرضـــى
لـولا بنيات كزغب القطـــا ... ردون من بعـــض إلى بعـــض
لكـــان لى مضـــطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعـرض
وإنـا أولادنـــا بينـــــنا ... أكبادنا تمشـــى عـلى الأرض
لو مـرت الريح على بعضهم ... لامتنعـت عينـى عن الغمض

هذه القطعة النادرة من الشعر القديم ، لا تزال منذ مئات السنين ، معبرة بصدق وشفافية عن عواطف الآباء تجاه الأبناء ، وستبقى كذلك ، لأنها صادرة عن فطرة صحيحة ، ومصورة لأدق الأحاسيس التى تربط الأسرة برباط التكافل ، وتجعل منها أعرق « مؤسسة » فى تاريخ البشرية ، يقبل أفرادها العمل والبذل والتضحية من أجل المعنى العام ، والدفاع عن الوجود الكلى دون انتظار جزاء .

وإذا كان الشاعر . فى القطعة السابقة ، فى سياق شكواه من معاناة الحياة وقسوة العيش ، يقدم اعترافاً بأن بناته الصغيرات هن اللاتى يحلن بينه وبين الهجرة بحثاً عن الرزق ، لأنه يدرك ـ بتجربته الاجتماعية ـ أن الفتاة بصفة خاصة ـ لا تحظى باعتبارها الإجتماعى وقيمتها الأدبية كاملة إلا إذا نشأت بين قومها ، وفى روباط أسرية وعائلية مستقرة ، لا تتوافر إلا فى محيطها الطبيعى ، فإنه حين تحدث عن عواطفه الأبوية ، ورقة إحساسه ، فإنه عبر بكلمة تجمع بين البنين والبنات [أولادنا] ولو قال « أبناؤنا » فإنها تعنى البنين فقط . وإذا فإن بناته هن اللاتى يربطنه إلى موطنه ، ولكن عواطفه مشتركة بين جميع أولاده . وهذه دقة متناهية فى التعبير والإفضاء بالعواطف .

إن الأطفال مرآة المجتمع الراهن ، ومشروع المستقبل ، وصورته القادمة ، وتدل الدراسات النفسية الحديثة على أن المكونات الأساسية التى تشكل شخصية الفرد فى المستقبل ، إنما تنشأ وتترسخ فى عقل الطفل وجهازه العصبى منذ سنواته الباكرة ، التى يحددها البعض بخمس سنوات ، أو دون ذلك بعام !! ومن شأن هذا ، ومما يترتب عليه أن نعترف بأهمية ما يفعله « الكبار » أمام الصغار ، وما يقولونه ، والظن بأن الطفل صغير لا يدرك معنى ما يجرى و قد ثبت بطلانه ، فالطفل ، منذ شهر ولادته ، وحتى تلك المساحة الزمنية المشار إليها ، يكون مثل لوحة الزجاج المسرفة فى شفافيتها ، التى تلتقط اللمسة